بسم الله الرحمن الرحيم

نِعْمَةُ الْمَاءِ ٥ صَفَر ١٤٤٦هـ

عِبَادَ اللهِ: أَسْبَغَ اللهُ عَلَىٰ عِبَادِهِ النِّعَمَ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَيَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ بِالْعَطَاءِ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، لَا تَغِيضُهُمَا نَفَقَةٌ، وَأَنْعَمَ عَلَىٰ عِبَادِهِ نِعْمَةً لَا غِنَىٰ لِلْخَلْقِ عَنْهَا، وَبِحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ يُنْشِئُ هَذِهِ النِّعْمَةَ أَمَامَ أَبْصَارِ الْبَشَرِ لِيَشْكُرُوهُ عَلَيْهَا، فَيَأْمُرُ مَلَائِكَةً تُسَيِّرُ الرِّيَاحَ، وَتَسُوقُ السَّحَابَ، وَتُنْزِلُ الْقَطْرَ لِيَذُوقَ عِبَادُهُ تِلْكَ النِّعْمَةَ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَىٰ الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾.

* أَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ النِّعْمَةَ مِنَ السَّمَاءِ لِيَرَاهَا الْخَلْقُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَتَتَحَرَّكَ الْقُلُوبُ لِطَلَبِهَا، وَشُكْرِهَا بَعْدَ نُزُولِهَا.

* جَعَلَهَا اللهُ مِنْ دَلَائِلِ رُبُوبِيَّتِهِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾.

* وَبِجَبَرُوتِهِ تَحَدَّىٰ الْخَلْقَ أَنْ يُنْزِلُوا قَطْرَةً مِنَ الْمَاءِ غَيْرَ مَا أَنْزَلَ، ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾.

* وَنُزُولُهُ مِنَ السَّمَاءِ غَيْبٌ لَا يَعْلَمُ زَمَنَهُ يَقِينًا وَقَدْرَهُ وَنَفْعَهُ إِلَّا اللهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾.

* وَإِنْزَالُ الْمَاءِ مِنْ حُجَجِ أُلُوهِيَّةِ اللهِ وَاسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ وَحْدَهُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

* وَهُوَ مِنَ الْأَدِلَّةِ عَلَىٰ الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

* بِهِ يَرْحَمُ اللهُ أَوْ يُعَذِّبُ، ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾.

* الْمَاءُ عَظَمَةٌ وَمَجْدٌ وَعِزٌّ، وَعَرْشُ الرَّحْمَنِ عَلَىٰ الْمَاءِ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾.

* وَهُوَ مِنْ نِعَمِ اللهِ الْغَزِيرَةِ الَّتِي امْتَنَّ اللهُ بِهِ عَلَىٰ مَنْ قَبْلَنَا، فَمَنْ شَكَرَ مِنْهُمْ زَادَهُ، وَمَنْ كَفَرَ عَذَّبَهُ، ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ﴾.

* وَلِكَوْنِهِ نِعْمَةً عَظِيمَةً أَرْسَلَ اللهُ بَيْنَ يَدَيْهِ مَا يُبَشِّرُ بِهِ الْخَلْقَ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾.

* وَالْأَرْضُ تَفْرَحُ بِمَقْدَمِهِ فَتَهْتَزُّ وَتَرْبُو وَتُخْرِجُ زِينَتَهَا، مِمَّا يَحَارُ الطَّرْفُ فِي حُسْنِهَا، قَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾.

* وَبِهِ تَحْيَا الْأَرْضُ بَعْدَ مَوْتِهَا، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

* وَالْخَلْقُ يُبَشِّرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِمَقْدَمِهِ، ﴿فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

* وَهُوَ مِنْ أَسْبَابِ رِضْوَانِ اللهِ عَلَىٰ الْعَبْدِ إِنْ شَكَرَهُ عَلَيْهِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا».

* خَلَقَهُ اللهُ بِلَا لَوْنٍ، وَأَوْجَدَهُ بِلَا طَعْمٍ، وَأَنْزَلَهُ بِلَا رَائِحَةٍ، مَاءٌ وَاحِدٌ يَنْزِلُ عَلَىٰ أَرْضٍ وَاحِدَةٍ، فَتَظْهَرُ جَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ، وَزَرْعٌ، وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُفَضَّلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ، مِنْهَا مَا هُوَ حُلْوٌ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُرٌّ، وَفِي بَعْضِهَا دَاءٌ وَفِي الْآخَرِ دَوَاءٌ.

* مَاءٌ بِلَا لَوْنٍ عَلَىٰ اخْتِلَافِ الْأَزْمِنَةِ وَالْأَمْكِنَةِ، خَلْقٌ لَطِيفٌ يُخَالِطُ الْجَوْفَ، وَهُوَ قَوِيٌّ يَطْغَىٰ عَلَىٰ الْأَوْدِيَةِ، وَيَبْلُغُ الْجِبَالَ، مَخْلُوقٌ عَظِيمٌ إِنْ نَزَلَ عَذَابًا لَا يَكْشِفُهُ سِوَىٰ اللهِ، قَالَ ﷻ: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾.

* مَنَافِعُهُ لَا تُحْصَىٰ، عَذْبٌ مَعِينٌ، تَتَمَتَّعُ بِهِ الْأَنْفُسُ وَالْأَبْدَانُ، ﴿وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾.

* وَجَعَلَهُ اللهُ تَعَالَىٰ طَهُورًا لِلْأَجْسَادِ وَالْقُلُوبِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾.

* خَلَقَهُ اللهُ مُبَارَكًا، فَقَطَرَاتٌ يَسِيرَةٌ تَحْيَا بِهِ الْأَرْضُ وَمَنْ عَلَيْهَا، وَتَسِيلُ مِنْهُ الْأَوْدِيَةُ، ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا﴾.

* وَبِهِ يُنْبِتُ اللهُ جَمِيعَ الزُّرُوعِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾.

* جَعَلَهُ اللهُ مُكَفِّرًا لِلذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا فِي الْوُضُوءِ، أَخْرَجَ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، حَتَّىٰ يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ».

* وَاللهُ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ أَحْكَمَ الْكَوْنَ، وَبِعِلْمِهِ وَحِكْمَتِهِ نُزُولُهُ إِلَىٰ الْأَرْضِ بِقَدَرٍ، تُعَدُّ فِيهِ عَدَدُ الْقَطَرَاتُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ: أَيْ: بِحَسَبِ الْكِفَايَةِ لِزُرُوعِكُمْ وَثِمَارِكُمْ وَشُرْبِكُمْ، لِأَنْفُسِكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ.

* وَأَسَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فِي الْأَرْضِ أَوْدِيَةً يَرَاهَا الْخَلْقُ؛ لِيَتَحَقَّقَ بِهَا وَعْدُ اللهِ لَهُمْ بِرِزْقِهِمُ الْمَاءَ، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا﴾، وَزِيَادَتُهُ عَنْ مِقْدَارِهِ عَذَابٌ.

* آيَةٌ عَجِيبَةٌ، مَسَالِكُهُ فِي الْأَرْضِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا اللهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ﴾.

* يَتَشَقَّقُ مِنَ الْحِجَارَةِ لِيَخْرُجَ رِزْقًا لِلْعِبَادِ، وَمِنَ الْحِجَارَةِ يَتَفَجَّرُ مِنْهَا الْأَنْهَارُ، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ﴾.

* مَخْلُوقٌ مُعْجِزٌ، إِنْ نَزَلَ عَلَىٰ أَرْضٍ قَاحِلَةٍ زَيَّنَ لَوْنَهَا إِلَىٰ مَنْظَرٍ بَهِيجٍ، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾.

* وَمِنْ تَمَامِ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْهَا بِهِ: حِفْظُهُ فِي بَاطِنِ الْأَرْضِ بَعْدَ نُزُولِهِ؛ لِتَطْمَئِنَّ النُّفُوسُ بِقُرْبِهِ مِنْهُمْ، وَلَهُ فِيهَا خَزَائِنُ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾.

* نِعْمَةٌ قَرِيبَةُ الْمَنَالِ، سَهْلَةُ النَّوَالِ، يُخْرِجُهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ الصُّخُورِ وَالْأَتْرِبَةِ عَذْبًا زُلَالًا، وَإِنْ عَصَىٰ الْخَلْقُ رَبَّهُمْ أَبْعَدَهَا عَنْهُمْ، قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾.

* وَكَمَا أَنَّهُ نِعْمَةٌ، فَهَذِهِ النَّسَمَاتُ اللَّطِيفَةُ، وَالْقَطَرَاتُ الصَّغِيرَةُ الَّتِي يَتَنَعَّمُ بِهَا الْعِبَادُ قَدْ تَتَحَوَّلُ بِأَمْرِ اللهِ إِلَىٰ عَذَابٍ، فَقَدْ أَغْرَقَ اللهُ بِهَذَا الْمَاءِ أَقْوَامًا أَعْرَضُوا عَنِ اللهِ، وَهُوَ أَوَّلُ عَذَابٍ عُذِّبَتْ بِهِ الْأُمَمُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.

* وَفِرْعَوْنُ تَكَبَّرَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، وَاخْتَالَ عَلَيْهِ بِالْمِيَاهِ، فَقَالَ: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾، فَأَهْلَكَهُ اللهُ بِمَا تَكَبَّرَ بِهِ، وَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِلنَّاسِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.

* وَجَعَلَهُ سُبْحَانَهُ سَيْلًا عَرِمًا عَلَىٰ قَوْمِ سَبَأٍ لَمَّا كَفَرُوا نِعْمَةَ اللهِ، فَمَزَّقَهُمُ اللهُ بِهِ كُلَّ مُمَزَّقٍ، قَالَ ﷻ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾.

* وَقَدْ جَعَلَهُ اللهُ نَصْرًا لِلْمُؤْمِنِينَ فِي بَدْرٍ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾.

* وَهُوَ مِنَ النَّعِيمِ الَّذِي تُسَرُّ بِهِ الْعَيْنُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾.

* وَلَا يَطْلُبُ أَهْلُ النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ شَيْئًا بِعَيْنِهِ سِوَاهُ، ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ: الْمَاءُ مِنْ آيَاتِ اللهِ الْمُوجِبَةِ لِلْإِيمَانِ، قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

* آيَةٌ بَاهِرَةٌ لَا يُنَازِعُ أَحَدٌ بِأَنَّهُ مِنَ اللهِ، وَأَلَّا مُوجِدَ لَهُ سِوَاهُ، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾.

* وَهُوَ مِنَّةٌ مِنَ اللهِ عَظِيمَةٌ تُصَاحِبُنَا فِي كُلِّ مَكَانٍ وَزَمَانٍ وَآنٍ، فَعَلَيْنَا شُكْرُهَا وَالتَّفَكُّرُ فِيهَا، وَطَاعَةُ خَالِقِهَا، وَأَنْ نَتَّخِذَهَا عَوْنًا عَلَىٰ عِمَارَةِ آخِرَتِنَا، وَأَلَّا نَغْتَرَّ بِفَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا بِهَا وَأَلَّا نُسْرِفَ فِيهَا.